ثروات الممالك الكنعانية ـ الفينيقية من خلال المصادر المصرية والمسمارية

أ.د. مروان أبي فاضل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية — الجامعة اللبنانية

مقدمة:

أقام الكنعانيون ـ الفينيقيون ممالك على طول الساحل الشرقي للمتوسط طيلة عصرَي البرونز والحديد (3000-333ق.م.)[1]، وبفعل موقعها الجغرافي لعبت ممالكهم دور الوسيط بين حضارات العالم القديم ولا سيما بين الحضارة المصرية من جهة، وحضارات بلاد ما بين النهرين من جهة أخرى.

لم تترك المصادر المباشرة للكنعانيين – الفينيقيين معلومات كافية عن مظاهر الثروة في مدنهم، إلا أن قراءة متأنية للمصادر غير المباشرة، وفي مقدمها المصادر المصرية والرافدية، تبيّن أن ممالك الكنعانيين ـ الفينيقيين امتلكت ثروات طبيعية كالأخشاب والصخور والمياه. كذلك امتلكت ثروات بشرية تجلّت في براعة الكنعانيين ـ الفينيقيين في الاستفادة من الواقع الجغرافي لمدنهم، فاستغلوا الموارد الطبيعية وفي طليعتها الاخشاب، واتقنوا صناعة السفن وأبحروا في رحلات بعيدة. ولا تهمل النصوص القديمة الاشارة إلى الجبل، الذي يبدو ملجأ لبعض الجماعات، كما كان البحر مجالا حيويا بالنسبة إلى سكان المدن الساحلية. ويمكن لمن يحلل النصوص المصرية والرافدية أن يلاحظ ان الممالك الكنعانية ـ الفينيقية تميزت بامتلاكها ثروات ومواد مستوردة من الخارج، ما يؤكد ازدهار النشاط التجاري.

وتزخر النصوص المصرية بالإشارة إلى الكنعانيين، ويعود أول ذكر فيها للمدن الكنعانية إلى الألف الرابع، وتزيد الأخبار عن الكنعانيين طيلة الألفين الثالث والثاني ق.م. وتبدو ضعيفة ومتفرقة في الألف الأول ق.م[2]. وقد كتبت هذه النصوص على ورق البردى، وهي عبارة عن نصوص سياسيّة وأدبيّة ودينيّة وأخبار بعض الملوك.

أما النصوص المسمارية فكُتبت على ألواح الطين المشوي، وتعود إلى الألف الثالث ومنها نصوص مملكة إيبلا، ومدينة أور وغيرها. وتكثر في الألف الثاني ق.م.، وقد ظهرت بقاياها في نصوص ممالك: ماري، وإمار، وإيبلا وأوغاريت. وتعطينا النصوص المسماريّة العائدة إلى الألف

[1] تعددت التسميات التي أطلقت على شعوب الساحل السوري اللبناني الفلسطيني القديم، كذلك تعددت النظريات التي حاولت تحديد أصلهم، مع العلم أن النظريات العلمية، التي نؤيدها، تعتبر أن الكنعانيين والفينيقيين هم شعب واحد، وإن كلمة " كنعانيين" تعبّر عن سكّان ساحل سوريا ولبنان وفلسطين طيلة الألفين الثالث والثاني ق.م. أي خلال عصر البرونز. أما تسميّة "فينيقيين" فيصّح إطلاقها على الكنعانيين الذين عاشوا خلال الألف الأول على الساحل الممتد بين عكا جنوبًا وأرواد شمالاً أي خلال عصر الحديد وما بعده. لمزيد من التفصيل حول علاقة تسمية الكنعانيين – الفينيقيين وأصلهم، وامتداد أرضهم، يمكن مراجعة: مروان أبي فاضل، تاريخ لبنان القديم في الكتب المدرسية اللبنانية (من القرن التاسع عشر حتى اليوم)، تمّ تقديم الكتاب في إطار بحث نال موافقة لجنة "إدارة البحث العلمي في المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية"، بيروت، 2014.

[2] يمكن الاطلاع على المصادر غير المباشرة للحضارة الفينيقية، ولا سيّما أهمية الأرشيف المصري بالهيروغليفية في:
Gabriela SCANDONE MATTHIAE, Les sources égyptiennes, *Krings*, p. 57 – 63.
كما يمكن مراجعة: أنطوان القسيس، "الأرشيف المنسي في تاريخ لبنان القديم"، دراسات، (المؤتمر الثاني لأرشيف تاريخ لبنان، كلية التربية في الجامعة اللبنانية)، بيروت، عدد خاص/26/1997، الجزء الأول، ص. 135 ـ 140.

الأول ق.م. معلومات واسعة عن تاريخ المدن الفينيقية[1]، وهي تتناول حوليات عائدة للملوك الآشوريين والكلدانيين وبعض النصوص الأدبيّة والدينيّة والإداريّة وغيرها.

وبسبب ندرة المصادر المباشرة المرتبطة بالحضارة الفينيقية[2]، تُعدّ المصادر غير المباشرة حاجة لا بد منها لفهم التاريخ الكنعاني الفينيقي بكل جوانبه[3]. ونحن إذ لا ندّعي أننا اطلعنا على النصوص المصرية والرافدية كافة ، فأننا اعتمدنا نصوصًا عدة، موزّعة على فترات تاريخيّة مُتباعدة، عرضنا مضمونها، وحلّلنا أبعادها التاريخيّة، واستنتجنا منها مظاهر الثروات الطبيعية والبشرية التي كانت تميّز المُدُن الكنعانيّة – الفينيقيّة.

1 ـ ثروات المدن الكنعانية وحاجاتها من خلال المصادر المصرية

وردت إشارات كثيرة إلى الكنعانيين في النصوص والنقوش المصرية القديمة، وتعود العلاقات بين الشعبين إلى الألف الرابع ق.م. كما تؤكد مكتشفات أثرية تمّ العثور عليها في مدينة جبيل. ومن أقدم النصوص المصرية في تلك المرحلة، نقش يعود تاريخه إلى عهد **"سنفرو"** الذي كان أحد ملوك الأسرة الرابعة (2650 - 2600 ق.م.)، وقد ورد في النقش أنه استورد حمولة **أربعين سفينة من خشب الأرز** من جبيل إلى مصر مخصصة لبناء السفن[4].

كانت هذه الأخشاب ضرورية لبناء المدافن الملكية، وعلى الرَّغم من وجود أخشاب الأغاسيا والنخيل في مصر، التي كانت تستخدم في بعض صناعات المنازل و السفن، إلا أنها كانت غير صالحة لصناعة الجسور. كذلك كان المصريّون يستخدمون منتجات الاشجار ك**"زيت الارز"** الذي يستخدم في عمليات التحنيط. وكانت الأخشاب تُنقل إلى مصر عبر البحر لخطورة مرورها عبر الطرق البرية، ولا سيما أن خطر القبائل البدوية في جنوب فلسطين وفي سيناء كان حاضرًا باستمرار، ولا يبدو أن الحملات التي قادها فراعنة الأسرتين الخامسة والسادسة قد أتت بنتيجة حاسمة ضد قطّاع الطرق في تلك المناطق[5].

ساهمت تلك العلاقات في تطور مدينة جبيل، وفي ازدهار مرفئها، وأضحت المدينة مركزًا تجاريًا مهمًا ودينيًّا معروفًا. ويظهر من الوثائق المكتوبة أهميّة الموقع الجغرافي الساحلي للمدن الكنعانيّة التي كانت تعتمد على البحر كمجال حيوي كانت تتواصل عبره مع الخارج مما ساهم في ازدهار تجارتها. وبما أن التجارة البحرية كانت مزدهرة، فهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأن الممالك الكنعانية اهتمت ببناء السفن على اعتبارها صناعة حيوية تسهم في ازدهارها.

---

[1] يمكن الاطلاع على أهمية الأرشيف بالكتابة المسمارية بالنسبة إلى كتابة تاريخ المدن الكنعانية ـ الفينيقية. في: القسيس، "الأرشيف المنسي في تاريخ لبنان القديم"، دراسات، المرجع السابق، ص. 140 - 146؛
Paolo XELLA, Les sources cunéiformes, *Krings*, p. 40 – 56.

[2] نقصد بالمصادر المباشرة النصوص والنقوش والأختام والبقايا الأثرية التي تركها الفينيقيون في مدنهم الام أو في مناطق الانتشار. حول واقع المصادر المباشرة المرتبطة بالحضارة الفينيقية / الكنعانية، يمكن مراجعة:
Maria Giulia AMADASI - GUZZO, *Krings*, p. 19 - 38.

[3] حول واقع المصادر غير المباشرة وأهميّتها وتنوّعها، يمكن مراجعة:
Sergio RIBICHINI, *Krings*, p. 38-74.

[4] يمكن مراجعة:
John Albert WILSON, «Egyptians Historical Texts», *ANET*, p. 227; Pierre MONTET, *Byblos et l'Egypte*, Librairie Orientaliste Paul Geutner, Paris, 1929, p. 75; Nina JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges*, traduit de l'anglais par D. HALARD JIDIJIAN, Dar El Machreq, Beyrouth, 1977. p. 19.

[5] NINA JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges*, p. 19

تطورت العلاقات من عهد الأسرة الرابعة حتى السادسة، حيث تكثر اللقى الأثرية المصرية في جبيل[1]، ومنها تقديمات أرسلها ملوك من الأسر الرابعة والخامسة والسادسة ولا سيما "بيبي الأول" و"بيبي الثاني" لمعبد " بعلة ـ جبيل"[2]. ويشير نقش هيروغليفي اكتشف في جبيل، إلى تقديمات تركها الفرعون "بيبي الأول"، حيث وصف بانه "**إبن حاطور، سيدة دندراح**"[3]. ويكشف نقش هيروغليفي على تمثال كاتب، اكتشف في معبد البعلات في جبيل، أن المصريين كانوا يعتقدون أن حاطور سيدة دندراح كانت تسكن في جبيل. وقد ورد في النقش ما يأتي:

"تقدمة ملكية لحاطور، سيدة دندراح التي تسكن في جبيل. لتعطي الوجبة الجنائزية: الخبز والبيرة، اللحوم والدجاج، الحلويات، القماش والثياب، الصمغ والمرهم، الآلاف من كل شيء طيب وطاهر مما تعطيه السماء..."[4].

يظهر النصّ تماثلا بين "سيدة جبيل" و"سيدة دندراح"، ما يؤكد عمق الصلات الحضارية بين الشعبين. كذلك يشير إلى مواد كانت مستخدمة في جبيل، قد تكون منتجة في جبيل أو أنها مستوردة من الخارج، "من أفغانستان أو من داخل الشرق القديم"[5]. هذه المواد متنوعة كما يبدو، منها مواد غذائية كالخبز والبيرة والحلويات، وثياب، وصمغ ومراهم ربما كانت تستخدم في صناعة الأدوية أو في طقوس دينية معينة. وكانت مدينة جبيل بحاجة إلى سوق استهلاكي لتصدير البضائع إليه، فشكلت مصر هذا السوق التجاري، وأمّنت الرعاية السياسيّة للمملكة.

انقطع التواصل بين المصريين والجبيليين في الفترة الإنتقالية الممتدة بين الدولة القديمة والوسطى، وزاد الأمر سوءًا غزوات الأموريين لجبيل وللساحل الكنعاني بين 2300 و1900 ق.م.[6]. لتعود من جديد في عهد الدولة الوسطى حيث تشير نصوص دينية مصرية، ومكتشفات أثرية عدة إلى جبيل وإلى بضائعها[7]. ومنها أربعة نقوش هيروغليفية تعود لتلك الفترة[8]: أهمها بالنسبة إلى موضوعنا موضوعنا النقش الأول، وهو عبارة عن مسلة، عليها نقش من تسعة أسطر مكتوب بطريقة أفقية، ومنسوب لأمير جبيلي يدعى "أكاي". أقام هذا الأمير تصليحات على "معبد نوت"، وبنى بوابة من الصخر وخشب الصنوبر. وتعدد المسلة عناصر وليمة جنائزية منها: **الخبز، والبيرة، ولحم البقر،**

[1] راجع ابرز اللقى الأثرية الشاهدة على العلاقات التي كانت قائمة بين الفراعنة المصريين من الأسر الثانية حتى السادسة ومدينة جبيل.
Louis SPELEERS, "Egypte", *DBS, II,* 1934, p. 772 – 774.

8 ـ يمكن مراجعة بدء العلاقة بين المصرين وكنعانيي جبيل، وتطورها في عهد الدولة القديمة، والآثار المصرية في جبيل ونوعها، وأبرز الملوك الذين تركوا آثار لهم في جبيل.
Maurice DUNAND, "La sixième campagne de fouilles de Byblos", *Syria ,IX,* 1928, p. 181; Gabriela SCANDONE MATTGIAE, Les sources égyptienne, *Krings,* p. 58 - 59.

[3] Nina JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges*, p. 22.

[4] تمت الترجمة عن الفرنسية:
Nina JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges*, p. 22.

[5] أنطوان القسيس، "لبنان في أرشيف الكنعانيين ـ الفينيقيين"، في: بحوث مهداة إلى الأباتي بولس نعمان، منشورات جامعة الروح القدس الكسليك، معهد التاريخ، 14، 2008، ص. 367.

[6] يمكن مراجعة تطور العلاقات بين مدينة جبيل والمصريين، وأثر غزوات الأموريين.
Nins JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges,* p. 23 - 24; C. CASTEL, 'Byblos', *DCM,* p 146 -147.

[7] راجع ازدهار العلاقات بين جبيل والدولة المصرية الوسطى، وأبرز اللقى الأثرية في:
Pierre MONTET, *Byblos et l'Egypte*, p. 266 – 267; Nina JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges*, p. 27 - 33.

[8] يمكن مراجعة:
Pierre MONTET, «Quatre nouvelles inscriptions hiéroglyphiques trouvées a Byblos» *Kemi XVII,* 1964, p. 61 - 68; Nina JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges*, p. 36.

والدجاج وتقديمات أخرى كالثياب والأواني. وهي تبدو عناصر أساسية في جبيل، وتعطي صورة عن بعض مظاهر المأكل والملبس.

ومع بداية الألف الثاني ق.م. وتحديدًا مع الأسرة الثانية عشر، عاد الازدهار إلى النشاط التجاري بين المملكتَين بدليل العثور على أسماء فراعنة مثل: سيزوستريس الثالث، أمنمحات الثالث وإبنه أمنمحات الرابع، على تماثيل، أو على أختام عديدة في مدينة جبيل. واكتسبت مصر نفوذًا مؤثرًا في جبيل دام حتى عهد الأسرة الثالثة عشر[1].

ومن النصوص المهمّة في تلك المرحلة قصة "سنوحي" الهارب من فرعون مصر سنوسترات الأول إلى أرض كنعان حوالى سنة1898ق.م. حيث وصل إلى جنوب فلسطين وحصل على ثقة أحد رؤساء المشايخ وتزوج ابنته، ثم جال في بعض مناطق كنعان، ولكنه ظل يصلّي كي يعود إلى بلاده، فاستجاب الإله، واستدعاه الملك المصري ليعود، وينهي قصته بوصف القبر الذي سيُدفن فيه في دياره[2]. وقد ترك سنوحي نصوصًا أدبيّة تصوّر الحياة السياسيّة واليوميّة في مصر وخارجها، وتتضمن معلومات قيّمة عن التاريخ الإجتماعي والإقتصادي. وتشير القصة إلى أنه تنقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى جبيل ثم هرب منها نحو الداخل[3]، ما يتيح لنا الاستنتاج أنه انتقل إلى إلى البقاع مرورًا بجبل لبنان[4]. وهنا يتخذ الجبل مظهر الملجأ الذي يبدو أنه إحدى مسلمات التاريخ اللبناني بحقباته المختلفة[5].

ويبدو من الآثار المكتشفة أن الازدهار عاد إلى جبيل في هذه الفترة، فنمت الصناعة والتجارة، وظهر حول معبد المسلات حي للحرفيين والحدادين وصانعي الفخار. وكان الانتاج في هذا الموقع مخصص كما يبدو للمؤمنين، الذين كانوا يشترون التماثيل لتقديمها للآلهة، وقد بيّنت المكتشفات الاثريّة وجود الكثير منها، وتشهد على تطور الصناعة والمهارة العالية التي تمتع بها الحرفيون في جبيل[6]. وتظهر الترابط الوثيق بين الفكر الديني والاقتصاد، فالمواد المُصَنّعة التي تُستخدم كتقديمات للآله كانت تُنّمي الصناعة، وتلك التي تصدّر إلى الخارج كانت تُنمّي التجارة. وقد يكون كنعانيو جبيل لجأوا إلى تنظيم مدينتهم ومرفئها لتتلاءمان مع حاجاتها الاقتصادية والدينيّة والمجتمعيّة.

تراجعت علاقة المدن الكنعانية بمصر بعد خضوع الاخيرة للهكسوس (بين 1730 و1560 ق.م.)، على الرَّغم من أن مسلة تعود إلى أحد ملوكهم تؤكد أصله الكنعاني وتدعوهم: **"عامو ريتونو"**

[1] يمكن الاطلاع على أبرز البقايا الأثرية العائدة لتلك الفترة. في:
Gabriela SCANDONE MATTHIAE, Les sources égyptienne, *Krings*, p. 59 -61.
ويمكن الاطلاع على طبيعة العلاقة بين جبيل ومصر حتى بداية الألف الثاني ق.م، في: القسيس، "الأرشيف المنسي في تاريخ لبنان القديم"، دراسات، ص. 135 - 137؛ كما يمكن الاطلاع على بدايات العلاقة وتطورها في القرون الأولى:
Sabatino MOSCATI, *Les Phéniciens*, édition francaise prefacée et dirigée par, AMIET P., Milan, 1988, p. 522.

[2] يمكن الاطلاع على أبرز ما تضمّنته سيرة سنوحي في عهد الدولة الوسطى في: يان أسمان، مصر القديمة تاريخ الفراعنة على ضوء علم الدلالة الحديث، ترجمة حسام عباس الحيدري، منشورات، كولونيا – ألمانيا، 2005، ص. 154 – 156.

[3] John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary Texts», *ANET*, p. 18.

[4] يمكن مراجعة سيرة سنوحي (Si - Nuhe) ومغامراته في بلاد الكنعانيين في:
John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary Texts», *ANET*, p. 18 -22.

[5] يمكن مراجعة: أنطوان القسيس، "لبنان في أرشيف الكنعانيين ـ الفينيقيين"، في: بحوث مهداة إلى الأباتي بولس نعمان، ص. 368.

[6] يمكن الاطلاع على: Nina JIDEJIAN, *Byblos à travers les âges*, p. 39 - 41.

أي بدو الساحل الكنعاني، كما أن أبوفيس قبل آخر ملك منهم، كان يسمى **"أمير ريتونو"**[1]. وتظهر الآثار المكتوبة في تلك المرحلة أن معظم أسماء حكّام الهكسوس في مصر كانت سامية، ولكن حكمهم في مصر لم يترافق مع غزو شعبي كبير غيّر في طبيعة التركيب السكاني للبلاد، بل اقتصرت فترة الهكسوس على تبدّل في هوية الحكّام، وفي مكان إقامتهم، فأقام ملوك الهكسوس، وهم يشكلون الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، في مدينة أفاريس (Avaris) في منطقة الدلتا[2].

تمكّن الفرعون المصري **أحمس الأول** من طردهم إلى فلسطين، فأسّس الدولة المصريّة الحديثة، وعلى رأسها الأسرة الثامنة عشرة. وازدهر من ملوك هذه الأسرة **"تحوطمس الثالث"** (1424-1479) الذي استلم الحكم عملياً بعد موت عمته حتشبوت[3]، ووجّه سبع عشرة حملة باتجاه بلاد كنعان وترك نقوشًا تشير إلى فتوحاته[4]. وقد ترك في حملته الثامنة التي كان متوجها فيها إلى الفرات، نصًا أشار فيه إلى قطع الأخشاب من نواحي جبيل، ومما جاء فيه:

عندما اجتازت جلالتي مستنقعات آسيا، بنيت سفنا عدّة من خشب الأرز على جبال الإله قرب سيدة جبيل. هذه السفن نقلت بواسطة عربات تجرها الماشية. مرّت أمام جلالتي لكي تعبر بعدها هذا النهر الكبير الذي يفصل تلك البلاد الأجنبية من بلاد النهرين[5].

ورد تعبير "جبل الإله" في النقوش المصرية وهو يعني إجمالا جبل لبنان[6]، أما سيدة جبيل في في هذا النصّ فهي مدينة جبيل والمنطقة القريبة منها حيث تكثر أخشاب الأرز.

يشير هذا النقش إلى أهمية أخشاب الارز في جبال لبنان بالنسبة إلى صناعة السفن الحربية المصرية، ولا سيما بعد توجه الفراعنة إلى شنّ حملات عسكرية لحماية حدود بلادهم. وتعود العلاقات التجارية بين الطرفين إلى أزمنة بعيدة[7]، ولكن أهمية الأخشاب كانت مرتبطة ببناء السفن والمعابد، فيما يعبر هذا النصّ عن التوجه العسكري لدى تحوطمس الثالث، كما يوضح أهمية الكنعانيين في تزويد جيش تحوطمس الثالث بالسفن اللازمة لاجتياز الفرات، عبر نقلها عن طريق البرّ من الساحل الكنعاني إلى الفرات. وهنا تبرز الأهمية الجغرافية للمدن الكنعانية التي تقع على الساحل وتتقن صناعة السفن، وفي شرقها تمتد جبال غنية بالغابات. هذه الطبيعة البحرية القريبة من الجبال جذبت الدول

[1] **ـ يمكن مراجعة:**

Dominique VALBELLE, "Hyksos" *DA*, p. 1105 - 1106.

[2] **راجع حكم الهكسوس لمصر وطبيعة سلطتهم فيها وهوية حكامهم في:**

Nicolas GRIMAL, Histoire de l'Egypte Ancienne, Fayard, 1988, p. 230 - 232.

[3] **يمكن الاطلاع على حياة تحوطمس الثالث في:**

Vincent RONDONT, Thoutmosis, *DA*, p. 2187 - 2188.

[4] **يمكن الاطلاع على ترجمة نصوص حملاته ال 17 في.**

John Albert WILSON, «Egyptian Historical Texts», *ANET*, p. 234 – 243.

[5] **يبدو أن "نهرين" المذكورة في النصّ، تعني منطقة نهر الفرات، وكانت الحملة متوجهة أصلا لاجتياز نهر الفرات. يمكن مراجعة تفسير موقع نهرين، وكامل النصّ في:**

John Albert WILSON, «Egyptians Historical Texts», *ANET*, p. 240; Nina JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges*, p. 44 – 45.

[6] **وردت في إحدى النقوش المصرية المكتشفة والعائدة لأحد ملوك الاسرة الثامنة عشر، إشارة إلى "أرض الآلهة" في سياق قصة عن رحلة إلى لبنان للحصول على الأرز. راجع نص النقش وهو لسوء الحظ اكتشف بحالة مشوهة.**

John Albert WILSON, «Egyptian Historical Texts», *ANET*, p. 243.

[7] **إزدهرت تجارة الخشب بين مصر وجبيل، إذ ذكرت النصوص المصرية إسم بلاد نخاو الواقعة على ما يبدو قرب جبيل. يمكن مراجعة:**

Pierre MONTET, "Le pays de Negaou près de Byblos, et son dieu", *Syria IV* (1923), p. 181 – 192.

الامبراطورية التي سعت لاحتلال هذه مدن الساحل الكنعاني، لكي تكتسب قوة عسكرية بحرية تساعدها في مواجهة الامبراطوريات المُنافسة.

وفي نصّ آخر للفرعون نفسه أثناء حملته التاسعة، ترد إشارة إلى كيفية نقل الأخشاب إلى مصر، وفيه إشارة إلى ثلاثة مرافئ يبدو أنها تقع شرقي المتوسط[1]، ويظهر مرة جديدة أن مرفأ جبيل كان يلعب دورا مهما أثناء الحكم المصري، وأن المدينة حافظت على علاقتها المميزة بالمصريين. وكان المرفأ مجهزًا بإنشاءات تُسهّل عملية البناء والتصدير. ولا يشير هذه النص إلى كيفية الحصول على الأخشاب، ولكن من المُرجح أن تحوطمس القائد العسكري في تلك المرحلة، كان يفرض تقديم الأخشاب كضريبة. فلا يظهر أنه دفع ثمنه من خلال مقايضته بمادة ثانية. كذلك عرفت مصر في عهد تحوطمس الثالث الغنى والازدهار، ونشطت التجارة، فأخذ المصريون الخمر والزيت والخشب من الكنعانيين، كما استفادوا منهم في بناء السفن[2].

انتقلت السلطة بعد تحوطمس الثالث إلى أبنائه، حتى وصل إلى الحكم أمينوفيس الرابع (أمحوتب الرابع) المعروف بأخناتون (1372-1354) الذي نقل عاصمته إلى تل العمارنة حيث قاد ثورته الدينية. وفي نهاية القرن التاسع عشر، اكتشف المنقبّون موقع تل العمارنة في مصر الوسطى، وقد عُثر في القصر على أكثر من 350 لوحة مرقومة بالخط المسماري وباللغة الأكاديّة التي كانت لغة العلاقات الدولية والدبلوماسية في القرن الرابع عشر ق.م. وتمثّل هذه الرقم رسائل وردت إلى البلاط المصري من ملوك الميتانيين والحثيين والآشوريين وقبرص، فيما أرسل العدد الأكبر من هذه الرسائل ملوك المدن الكنعانية[3].

ونقرأ في رسائل تل العمارنة إشارات واسعة إلى المُدُن الكنعانية، ونستنتج منها أن قبائل العبيرو كانت من ألدّ أعداء مصر، تحالفت مع الملك الأموري عبيدي – عشيرتا (Abdi-Achirta) الذي حاصر **"جبيل وبيروت وصور"**[4]، ويظهر من رسائل **رب – عدي** (*Rib-Addi*) ملك جبيل أن ملوك المدن الكنعانية انقسموا بين فريقين: فريق متحالف مع مصر يضمّ ملك جبيل وعبدي – ملكي (Abdi-Milki) ملك صور، وفريق آخر متحالف مع الأموريين يضمّ زمريدا (Zimrida) ملك صيدا[5].

[1] يمكن مراجعة تفسير النصّ في:
John Albert WILSON, «Egyptians Historical Texts», *ANET*, p. 241.

[2] **إزدهرت تجارة الخشب بين مصر وجبيل ، إذ ذكرت النصوص المصرية إسم بلاد نخاو الواقعة على ما يبدو قرب جبيل. يمكن الاطلاع على ازدهار العلاقة بين جبيل وملوك الدولة الحديثة في مصر في:**
Pierre MONTET, "Le pays de Negaou près de Byblos, et son dieu", *Syria IV* (1923), p. 181 – 192; Gabriela SCANDONE MATTHIAE, Les sources égyptienne, *Krings*, p. 61 - 63.

[3] **حول إكتشافات رسائل تل العمارنة وعددها وأهميتها التاريخية يمكن العودة إلى:**
Edward DHORME, "Amarna (Lettres d'El- Amarna)", *DBS, I*, 1928, p. 207 – 226.

[4] **حول المدن الكنعانية التي ذكرت في رسائل تل العمارنة وملوكها، يمكن مراجعة:** ***TPOA*, p. 60 - 61.**

[5] **Nina JIDEJIAN, Tyr à travers les âges, Librairie Orientale, Beyrouth, 1996, p. 44.**

بعد تأزّم الأوضاع في جبيل، أرسل ملكها أخته وأبنائها وأبنائه إلى صور، وورد في كتاباته ما يلي: **"ما من مكان آمن بقدر أرض ملك صور، إنها مثل أرض أوغاريت"**[1]، ولكن بعد وصول **عائلة رب – عدي إلى صور**، سقطت المدينة بيد الأموريين. ولكن سرعان ما اغتيل عبدي – عشيرتا الأموري، وخلفه **"عزيرو"** (*Aziru*) وتابع الضغط على المدن الساحلية، وأصبح **"أبي ملكي"** (*Abi –Milki*) ملك صور خلفًا لعبدي – ملكي، ووجّه بدوره الرسائل إلى أمينوفيس الرابع (أمحوتب الرابع) (أختاتون 1372-1354)[2]، عبّر في الأولى عن خوفه من عزيرو وزمريدا ملك صيدا، وأعلمه أن زمريدا والأروادیين حاصروا صور من البر والبحر، وطلب من ملك مصر **إرسال مساعدات من الخشب والمياه**، ويبدو أن مصر أرسلت مساعدات إلى صور[3]. وعلى الرّغم من الانقسامات التي كانت قائمة بين المدن الكنعانية، فأن النقوش تشير إلى أنها كانت غنية بالمياه والأخشاب

أما النصوص العائدة إلى ما بعد حكم أبي – ملكي فتبيّن أن صور وغيرها من المدن الكنعانية تخلّت عن تحالفها مع مصر، ثم عاد الاتصال في عهد سيتي الأول، ابن رعمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشر، الذي حاول التوسّع من جديد لإعادة النفوذ المصري إلى بلاد كنعان، وقد تواصل تأثير مصر على الساحل الكنعاني مع رعمسيس الثاني (1293-1235)[4] الذي حاول توسيع الإمبراطورية المصرية نحو سوريا الشمالية، فاصطدم بالحثيين وانتهى الصراع بين الطرفين بتوقيع معاهدة صلح بعد معركة قادش.

وتُظهر إحدى الرسائل المصرية التي تعود إلى نهاية عهد الأسرة التاسعة عشرة اهتمام المصريين بجغرافية بلاد كنعان، كما ورد في نصّ كان يُدَّرس لإعداد الكتّاب في مصر ويتضمن إشارات مدن منطاطق كنعانية عدّة. وقد جاء في النصّ ما يلي:

"أرجوكم أن تعطوني معلومات عن بيروت، صيدا وصربتا، وأن تقولوا لي أين يقع نهر الليطاني. صِفوا لي أوزو. يُقال إن مدينة أخرى تقع في البحر، تسمى صور – المرفأ. تُنقل إليها المياه بواسطة السفن، وغِنى الجزيرة بالسمك أكثر من غِناها بالرمل"[5].

يظهر النصّ مرّة جديدة أن المدن الكنعانية كانت غنية في المياه، وبحرها مليء بالسمك، والإشارة إلى غنى بحر الساحل الكنعاني بالسمك خلال القرن الثالث عشر ف.م. نرى أصداء له في مصادر كلاسيكية خلال القرن الثاني الميلادي[6]. ونستنتج من النصّ أعلاه إشارة إلى حسن استغلال الكنعانيين مجالهم الجغرافي، من خلال بناء مرفأ في صور، ونقل المياه من ينابيع راس العين في صور البريّة إلى صور البحريّة. وكانت هذه الينابيع موقعًا مارس فيه الصوريّون عبادات دينيّة، فقد أوردت المصادر الكلاسيكية إشارات إلى طقوس دينية كانت تُقام في مدن الساحل الكنعاني/الفينيقي

---

[1] **Michel GRAS, Pierre ROUILLARD, Javier TEXIDOR, *L'Univers Phénicien*, Paris, Hachette, 1995, p.56.**

[2] **Nina JEDIJIAN, Tyr à travers les âges, p. 45.**

[3] **John Albert WILSON, «Egyptians Historical Texts», *ANET*, p. 484.**

[4] **يمكن الاطلاع على حياة رعمسيس في:**

Hourig SOUROUZIAN, Ramses II, *DA*, p. 1864 – 1865.

[5] **J. WILSON, «Egyptians Historical Texts», *ANET*, p. 477**

[6] **كتب جوستان وهو أحد آباء الكنيسة، فقال: "إن الصوريين هم من الفينيقيين الذين تركوا أرضهم بسبب هزة أرضية وارتحلوا إلى "البحيرة السورية"، ومنها انتقلوا إلى ضفاف البحر حيث أسسوا مدينة أسموها "صيدون" بسبب غنى بحرها بالسمك، وكلمة صيدون بالفينيقية تعني سمك"**

JUSTIN, *Abrégé des histoires Philippiques de Trogue Pompée,* Trad. E. CHAMBRY et L. THELY-CHAMBRY, Paris, s.d., *XVIII*, III, 1 – 5.

وغايتها تقديس المياه، ومن أقدمها عيد "**يِريد**" (*Yerid*) الذي كان يُمارَس في صور ومناطق أخرى من الشرق الأدنى في العصر الهلّنستي، وقد ورد ذكره في التلمود الأورشليمي[1]. وكان المؤمنون يبدأون تطوافهم الديني من صور ومنها يسيرون باتجاه ينابيع رأس العين، وكان بعض الشبّان يحملون أباريق مُلئت بمياه البحر ويفرغونها في الينابيع، ولما تركد تُصبح صالحةً للشرب، وبعد انتهاء المراسم يتحول الطقس إلى احتفال فرح. هذا العيد يشبه طقوس كانت تُمارَس في أوغاريت وغيرها من الممالك القديمة، ويُبرز أهمية المياه في الطقوس الدينية ومدى ارتباطها ب"الآلهة الابطال" مثل ملقرت وأشمون وأدون[2].

تراجع النفوذ المصري في القرن الحادي عشر ق.م.، فقد كان القرن الثاني عشر حافلاً بالمتغيّرات السياسيّة والسكانيّة. إذ شهد قدوم شعوب البحر وغزواتهم التي وصل تأثيرها إلى مصر حيث صدّتهم جيوش رعمسيس الثالث، ثم استقرت قبائل منهم في جنوب بلاد كنعان. كذلك تعرضت الإمبراطورية الحثيّة للدمار، ولم تعد مصر القوة الكبرى في المنطقة كما كانت في السابق.

إستفادت الممالك الفينيقية من كل المتغيرات في المنطقة، وتمتعت مع حلول القرن الحادي عشر بمرحلة من الاستقلال وعرفت عصرًا من الازدهار التجاري والاقتصادي. وفي هذه الظروف التاريخيّة الجديدة، وصل التاجر المصري **وين أمون** (*Wen Amon*) إلى مدينة جبيل[3] خلال حكم **زكار بعل** (*Zekerba'al*)، مرسلاً من كبير كهنة أمون في الكرنك لشراء الخشب. ويُستدل من برديات وين - أمون أن قوّة المصريين تراجعت بعد رعمسيس الثاني، فأصبحت مصر مُضطرة لتسديد ثمن الخشب للفينيقيين، بعد أن كان ينقل باعتباره جزءًا من الضريبة[4].

كانت مصر منقسمة بين حاكمَين في تلك الفترة، ثم تمكن أحدهما من تأسيس الأسرة الحادية والعشرين، وهو المعروف بإسم "نسوبانيبديد" (Ne-su-Ba-neb-Ded). يخبرنا وين أمون[5] أنه بعد بعد وصوله إلى جبيل، مكث فيها 29 يومًا، فيما كان ملك جبيل يرسل له في كل يوم "**ريس المينا**" (harbor master) طالبا منه الرحيل[6]. ثم أن ملك جبيل "زكار بعل" وافق على لقائه، حيث كان جالسا في قصره، في غرفة المقابلات وخلف ظهره نافذة، تظهر وراءها أمواج بحر "**سوريا العظيم**"[7]. ما يبيّن أن القصر كان بالقرب من البحر[1]. وبعد أن استجوب ملك جبيل وين أمون سأله عن

[1] ***Talmud de Jérusalem, Aboda Zara*, I, IV, 39b; Corinne BONNET, *Melqart Cultes et mythes de l'Héraclès tyrien en méditerranée*, Studia Phoenicia VIII, Leuven, 1998, p. 68.**

[2] **حول عيد يريد وأهميّة المياه في طقوس الخصوبة يمكن مراجعة:**
Corinne BONNET, *Melqart Cultes et mythes de l'Héraclès tyrien en méditerranée*, p. 68-69.

[3] **يعتبر المؤرخون أن رحلة وين أمون إلى جبيل تمّت بين سنتَي 1069 و 945 ق.م. ورجّح بعضهم أنها تمّت على الأرجح بين نهاية عهد الأسرة 21 وبداية عهد الأسرة 22. لمزيد من التفصيل حول تأريخ الرحلة يمكن مراجعة:**
Marc ABOU-ABDALLAH, *l'Histoire du Royaume de Byblos a l'âge du Fer (1080-333)*, Orientalia Lovaniesnsia Analecta, Peeters, Leuven – Paris – Bristol, 2018, p. 8 – 9.

[4] **يمكن مراجعة ظروف رحلة وين ـ أمون إلى المدن الفينيقية، وتجارة الخشب مع جبيل، وإشارات مهمة لمدينة صور، تظهر أن المدن الفينيقية كانت مزدهرة في تلك الفترة، وأن النفوذ المصري قد تراجع.**
Pierre MONTET, *Byblos et l'Egypte*, p. 280 – 283; Maurice DUNAND, "Phénicie", *DBS, VII*, 1966, p. 1187.

[5] **يمكن مراجعة الترجمة الكاملة لقصة وين أمون إلى الانكليزية في:**
John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary», *ANET*, p. 25 – 29.

[6] **يمكن مراجعة رفض زكار بعل لمقابلة وين ومطالبته بترك أرض جبيل. في:**
John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary», *ANET*, p. 26.

[7] **يمكن مراجعة موقع القصر في القصة:**

عن "الطاقم السوري" الذي أرسله ملك مصر للتجارة، وسأله عن السفينة التي أرسلها لتحمل الخشب، وذكر أمامه أن في جبيل عشرين سفينة وفي صيدا خمسون يتولى إدارتها وكيل الملك "وركت ـ إيل" (Werket-El).

قال وين أمون لزكار بعل: **"جئت من أجل الخشب لبناء مركبة فخمة لأمون رع، ملك الآلهة. أمّن أبوك الخشب لنا، وكذلك فعل والد أبيك، وأنت ستفعل مثلهم".**

ردّ زكار بعل:

"صحيح، إن أمّنت لي الوسائل سأعطيك الخشب بدوري. عندما كان أجدادي يتجاوبون مع طلب الفرعون ـ الذي يستمد من الآلهة الحياة والازدهار والصحة ـ حيث كان يرسل ست سفن محملة بالبضائع المصرية التي كان شعبنا يفتقر إليها وكان يكدسها في مخازننا. وأنت ماذا تقدم لي؟[2].

ثم أحضر زكار بعل الملفات التي كان يمتلكها عن التبادلات التجارية السابقة، وقرأها بحضور وين أمون[3]. ويبدو أن وين أمون كان يحمل بضائع مقابل شراء الخشب، كان قد زوده بها الفرعون، وهي من الذهب، والفضة، والكتان، وورق البردى، والحبال، وجلد الثيران، والسمك المقدد[4].

وهكذا أعطى زكار بعل الامر بمتابعة قطع أشجار الأرز. عمل 300 رجل في قطع الأشجار، وجرهم 300 ثور إلى الشاطئ[5]. غير أن زكار بعل اعتبر أن ما قدمه المصريون مقابل الخشب لا يكفي، فوعده وين أمون بأن يرسل له تقديمات إضافية ما أن يصل إلى طيبة. وتنتهي القصة بهروب وين أمون، ونجاته من محاولة لاعتقاله من قبل جماعات من الفلسطو، طلبوا من ملك جبيل تسليمه، لكنه رفض ونصحهم باعتقاله في مياه البحر، لكن الحظ أسعفه وهرب منهم بفضل عاصفة دفعته إلى قبرص[6].

يترك النص صورة واضحة عن عمق العلاقات التجارية التاريخية التي كانت تربط مصر بجبيل، ويقودنا إلى استنتاجات حول المقومات البشرية لهذه المدن في تلك الفترة، ومنها:

- وجود مؤسسات تجارية تُعنى بالتبادل التجاري بين مصر وكل من جبيل وصيدا، وهي تابعة للملوك في هذه الدول، وهي تراقب المرافئ ونشاطات التجار الغرباء. ونلاحظ الدور المهم لوظيفة رئيس المينا الذي كان يمثل الملك في جبيل، ما يؤشر إلى أهمية المرفأ بالنسبة إلى المدينة.
- ازدهار مرفأ صيدا حيث يشير التقرير إلى رسو خمسين سفينة، بينما كانت ترسو في جبيل عشرون سفينة.

John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary», *ANET*, p. 26.

[1] يمكن مراجعة تحليل موقع القصر الذي يبدو أن دونان لم يستطع تحديد موقعه:

Maurice DUNAND, Byblos, *son histoire, ses ruines, ses légendes*. Beyrouth: Imprimerie catholique, 1963. p. 62; Nina JIDIJIAN, *Byblos à travers les âges*, p. 59.

[2] John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary», *ANET*, p. 27;

[3] John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary», *ANET*, p. 27.

[4] يمكن مراجعة الثمن الذي دفعه المصريون لقاء شراء الخشب:

John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary», *ANET*, p. 28; Nina JIDIJIAN, *Byblos à Travers les âges*, p. 60.

[5] يمكن مراجعة أعمال قطع الأشجار:

John Albert WILSON, «Egyptian Myths, Tales, and Mortuary», *ANET*, p. 28.

[6] يمكن مراجعة نهاية قصة وين أمون في:

John Albert WILSON, «Egyptians Myths, Tales and Mortuary Texts», *ANET*, p. 28 - 29.

- حاجة جبيل إلى ورق البردى للكتابة.
- الحبال التي طالب بها زكار بعل لربط الأخشاب المقطوعة، وكانت تستعمل كما يبدو في ربط البضائع لبيعها، وفي عمليات الابحار وربط الخشب. وهذا ما يشهد على ازدهار تجارة الحبال بين مصر وجبيل.
- بيع جبيل الخشب المتوفر على الجبال القريبة منها، مقابل الحصول على مواد لم تكن موجودة لديها كما يقول زكار بعل، ومنها الذهب والفضة والكتان، ما يشهد على ندرة هذه المواد في جبيل ومختلف أرض الكنعانيين. ويظهر أن أسعار هذه السلع كانت محددة لمقايضتها بأخشاب الأرز.

ويلفت نظرنا أيضا امتلاك مدينة جبيل أرشيفا من ورق البردى تحفظ فيه معاملاتها التجارية، ما يجعلنا نرجّح أن الأرشيف كان يشتمل على مختلف النشاطات السياسيّة والدينيّة والاقتصاديّة. ويذكّرنا وجود هذا الارشيف بإشارات أخرى إلى امتلاك مدن أخرى مثل صور وبيروت أرشيفًا مماثلا[1].

تراجع النفوذ المصري عن الساحل الشرقي للمتوسط في الألف الأول ق.م.، إلا أن العلاقات استمرت بين جبيل وفراعنة مصر كما يستدل من تمثال أهداه "أليبعل" (*Eliba 'al*) ملك جبيل لملك مصري من الأسرة الثانية والعشرين يدعى "أوسوركون الأول" (Osorkon I) (بحدود 924 - 895)، ويحتوي على نقش فينيقي[2]. ولكن الضغط الأشوري ظل يزداد على مدن الساحل الشرقي للمتوسط، فخضع الفينيقيون للأشوريين، ومن ثم للكلدانيين والفرس.

2 ـ ثروات المدن الكنعانية ـ الفينيقية وحاجاتها من خلال المصادر المسماريّة

تظهر المكتشفات الأثرية أن علاقات قديمة قامت بين المدن الكنعانية وشعوب بلاد الرافدَين[3]. وتعود أولى الإشارات إلى ملحمة جلجامش[1] التي حققت انتشارا واسعًا في بلاد ما بين النهرين وخارجها، وتمّت ترجمتها إلى معظم اللغات الحيّة[2].

---

[1] وردت في المصادر القديمة إشارات عدّة إلى امتلاك الفينيقيين أرشيفًا في مدنهم، فقد أكدت الحفريات امتلاك أوغاريت أرشيفا ملكيا غنيًا، وذكر المؤرخ الإغريقي هيرودوت (عاش بين سنتَي 490 و424 ق.م.) أن كهنة صور كانوا يحفظون الأرشيف في معبد المدينة:
Hérodote, Histoire, Trad. Ph. –E. Legrand. Coll. Universités de France, G. Budé. Paris, 1932, *II,* 44.
كذلك ذكر المؤرخ اليهودي "فلافيوس يوسيفيوس" (ولد حوالى سنة 37م. ومات حوالى سنة 100)، في كتابه "ردّ على أبيون": "إنه كان للصوريين، منذ سنوات طويلة، أرشيف عام (Chronique)، وضعته الدولة وحافظت عليه بعناية، وقد تناول تاريخهم، وعلاقاتهم بالشعوب الأخرى". وقد ذكر "فلافيوس يوسيفيوس" الأرشيف الصوري، كمصدر من المصادر التي أشارت إلى تاريخ اليهود. وكان قد ذكر في مؤلفات أخرى أسماء مؤرخين كتبوا تاريخ الفينيقيين وهم: "موخوس الصيدوني"، هيستيا ، ويورام المصري:
FLAVIUS, J., *Antiquité Judaïque,* Traduit sous la direction de T. REINACH, PARIS, 1900-1924, *I,* 108.
وذكر المؤرخ الفينيقي فيلون الجبيلي (عاش في النصف الثاني من القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني الميلادي) أن سنكن يتن جمع معلوماته التاريخية من أرشيف المعابد ليكتب "التاريخ الفينيقي":
PHILON de BYBLOS, dans EUSEBE DE CESAREE, *La préparation évangélique, I,* tr. Fr. Par J. SIRINELLI - Ed. DES PLACES, (Sources chrétiennes, 206), Paris, 1974, *I,* 9 – 10.

[2] يمكن مراجعة:
René DUSSAUD, "Dédicace d'une statue d'Osrkon I par Eliba'l, roi de Byblos", *Syria VI,* (1925), p. 101 – 117; Pierre MONTET, *Byblos et l'Egypte,* p. 283; N. JIDIJIAN, *Op. cit,* p. 66 – 67.

[3] يمكن الاطلاع على بداية هذه العلاقات في:
Paolo XELLA, Les sources cunéiformes, *Krings,* p. 39 - 41.

وقد ورد في اللوحة الثانية من نسخة نينوى[3]، وتحديدًا في العمود الخامس ما يأتي:

(إنه) من أجل حماية [غاب]ـة الارز
ومن أجل إرهاب البشر، (عمد) إنليل إلى وضع همبابا في مركزه
(هذا) الهمبابا، صراخه هو الرعب
فمه نار ونَفَسَه هو الموت!
يسمع جميع أصوات الغابة، عن بعد ستين بيرو[4]،
من (إذن) بإمكانه الولوج إلى أعماق الغابة.
من أجل حماية غابة الأرز، ومن أجل إرهاب البشر،
عمد إنليل إلى وضعه في مكانه.
من يدخل غابته، يجمد رعبًا[5].

وتتابع الملحمة في الألواح التالية تحضيرات جلجامش وصديقه أنكيدو لاقتحام غابة الأرز[6]، وفي العامود الأول من اللوحة الخامسة من نسخة نينوى نقرأ الآتي:

كانا يتأملان انبساق أشجار الارز،
وكانا يستكشفان مدخلًا إلى الغابة،
تركت (فيها) تنقلّات همبابا، مسالك عديدة.
ممرات مستقيمة وطرقات واضحة المعالم.
(ومن بعيد)، كان يمكن رؤية جبل الأرز
مسكن الآلهة ومقر إيرنيني (أحد ألقاب عشتار) **المقدّسة.**
على سفح (هذا الجبل)، كانت أشجار الارز تنشر فروعها،
كان ظلّها ممتعًا ومشبَعًا بالشذى!

---

[1] كان جلجاميش على ما يبدو ملك مدينة أوروك السومرية في النصف الأول من الألف الثالث ق.م. تشير إليه اللوائح الملكية السومرية التي وضعت في بداية الألف الثاني ق.م. على اعتباره الملك الخامس لمدينة أوروك. يمكن الاطلاع على موجز تاريخ ملوك أوروك في:
Dominique CHARPIN, Francis JOANNÈS, URUK (Rois), *DCM*, p. 890 - 893.

[2] تمت ترجمة ملحمة جلجامش إلى اللغة العربية، يمكن على سبيل المثال مراجعة: فراس السواح، جلجاميش - ملحمة الرافدين الخالدة، دراسة شاملة مع النصوص الكاملة وإعداد درامي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1996؛ قاسم الشوّاف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، الكتاب الرابع: الموت والبعث والحياة الأبدية، دار الساقي، بيروت، 2001. ونعتمد في مقالتنا على ترجمة الشوّاف.

[3] تعددت الاساطير التي تحدثت عن بطولات جلجاميش، ما يشير إلى سعة انتشارها وشعبيتها، منها خمس سومرية وجاءت تحت عنوان: "جلجاميش وأغّا"، "موت جلجاميش، " جلجاميش والثور السماوي"، " جلجاميش وهواوا" (هواوا حارس غابة الأرز)، "جلجاميش أنكيدو والجحيم". كما ظهرت في الفترة البابلية القديمة أولى النصوص الاكادية للملحمة، ولكنها لم تصلنا كاملة. أما النص المكتشف في نينوى فيعود إلى الألف الأول ق.م. وكتب على إحدى عشر لوحًا. ولوح يحمل الرقم 12، يقدم ترجمة أكادية لقصة "جلجاميش أنكيدو والجحيم" وغير متصل بالنص المكتوب في نينوى. يمكن مراجعة:
Brigitte LION, Epopée de Gilgames, *DCM*, p. 294.

[4] البيرو (bêru): وحدة قياس تساوي حوالى 10 كلم.

[5] قاسم الشوّاف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، المرجع السابق، ص. 296.

[6] يمكن الاطلاع على الألواح الثالثة والرابعة والخامسة في: قاسم الشواف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور المرجع السابق، ص. 290 – 335.

كانت الغابة مكتسبة بأجمّة كثيفة الالتفاف... [1]

وبعد قضاء البطلين على همبابا، سنحت الفرصة لجلجامش وأنكيدو لقطع أشجار الأرز، وفي لوحة أوروك يتوجه أنكيدو بالكلام إلى صديقه فنقرأ ما يأتي:

أي صديقي، قمنا بقطع أرزةٍ باسقة بشكل خاص،
قمّتها كانت تشقّ السماء!
أطلب أن يُصنع منها ردفة بوّابة، ارتفاعها
ستون ذراعًا وعرضها عشرون ذراعًا
وبسمك قدره ذراع واحد، مداراتها الاوسط
والعلوي والسفلي كل واحد عشرة أذرع.
سوف ننقلها إلى نفّر، محمولة على الفرات، وسوف تبتهج بها نفّر" [2].

تقودنا ألواح ملحمة جلجامش إلى استنتاجات عدّة من أبرزها:

- قداسة غابة الأرز لكون حاميها هو إنليل[3].
- ضخامة غابة الأرز وجمالها وسحرها.
- اختراق المسالك والممرات الغابة، وفي ذلك إشارة إلى الطرق التي كانت معتمدة في استغلال الغابة عبر شق الطرقات، ثم نقل الأخشاب إلى الساحل، ومنها إلى البلدان المجاورة.

كذلك تشير النقوش العائدة إلى **سرجون الأكادي الأول** (2335 - 2279 ق.م.) إلى أنه وصل إلى أرز لبنان خلال حملته ضد الأموريين والكنعانيين، وحصّل منهم الضرائب، ومن بينها أخشاب الأرز[4]. وتُبرز هذه النصوص أيضا الأهمية التجارية التي كانت تلعبها الممالك الكنعانية بالنسبة إلى بلاد ما بين النهرين وبالنسبة إلى سوريا الداخلية. وإذا كانت العلاقة مع مصر، تؤكد على تطور التجارة البحرية لدى الكنعانيين، فإن تجارتهم مع بلاد ما بين النهرين تؤكد ازدهار التجارة البريّة أيضا.

تزيد النصوص المسمارية العائدة إلى الألف الثاني ق.م[5]، ويتبيّن من مكتشفات مملكة ماري وإمار وأوغاريت، معلومات متنوعة عن المدن الكنعانية. ويظهر "أرشيف" مملكة ماري علاقات تجارية مميزة قامت مع جبيل، وتفيد نصوص إمار عن علاقات مع تجّار كنعانيين من صيدا[6].

---

[1] قاسم الشواف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، المرجع السابق، ص. 321.

[2] قاسم الشواف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، المرجع السابق، ص. 334.

[3] يُعدّ إنليل السومري إله الرياح، "إن: السيد" و"ليل: الرياح"، عرف باسم "إليل" في اللغة الأكادية، وهو سيّد الآلهة في المجمع السومري الأكادي، وكان في طليعة الآلهة الذي يرتبط به آلهة وإلاهات عديدة. لمزيد من المعلومات حول الإله انليل يمكن مراجعة:
Francic JOANNES, Enlil, *DCM*, p. 283 - 285.

[4] أنطوان القسيس، "لبنان في أرشيف الكنعانيين ـ الفينيقيين"، في: بحوث مهداة إلى الأباتي بولس نعمان، ص. 367؛
Francis JOANNES, «Sargon I (d'Akkad)» *DCM*, p. 755 - 756.

[5] حول أرشيف الكتابة المسمارية العائد إلى الألف الثاني ق.م، راجع: أنطوان القسيس، "الأرشيف المنسي في تاريخ لبنان القديم"، دراسات، ص 14-143.

[6] راجع أهمية مكتشفات ماري وإيمار بالنسبة لتاريخ الكنعانيين، في:
Paolo XELLA, Les sources cunéiformes, *Krings*, p. 41 - 43.

ويذكر ملك ماري "**يهدون ليم**"(1810 - 1794 ق.م.) أنه وصل إلى غابة الارز وأقام له نصبا فيها، وجلب معه كميات من خشب الارز لسقف هيكل الاله "شمش". وتشير النصوص العادة إلى ملك ماري شمسي ـ أدو (1792 - 1782)، أنه تنّقل في ممالك عدة في لبنان والبقاع، وفي الانتي لبنان لمساعدة حليفه إيشي ـ أدو ملك قطنة في إخماد بعض حركات التمرد في تلك المناطق[1]. ما يشير إلى استقرار بشري في جبل لبنان.

أما النصوص المسمارية الأكثر غزارة، فهي العائدة إلى الألف الأول ق.م.[2] وهي تؤرخ لحكم ملوك أشور وبابل الذين شنوا حملات عدة باتجاه البحر المتوسط.

بدأت أولى الحملات الأشورية مع "**تغلت فلاصر الأول**"(1115-1076ق.م.) الذي ترك بلاد أشور[3] في السنة الرابعة لحكمه، وقاد حملة عسكرية نحو فينيقيا من أجل الحصول على خشب الأرز، وتشير حولياته إلى أنه حصّل الجزية من جبيل وصيدا. وقد جاء في إحدى حولياته ما يأتي:

"ذهبتُ إلى لبنان قطعت أشجار الأرز لمعبدَي آنو وأدد، سيّداي الإلهان العظيمان، ونقلت الأخشاب عبر أرض أمورو. وغزوت أرض أمورو. وحصّلت الضرائب من جبيل وصيدون وأرواد. عبرت بواسطة سفن أرواد البحر، ومن أرواد التي تقع على الساحل، إلى بلدة ساموري التي تقع (في) أمورو (على مسافة) ثلاثة 3 أميال مربع برية. قتلت ناروال (*narwhal*) يسمونه حصان البحر، في أعالي البحار"[4].

تظهر أرواد من بين المُدُن الفينيقيّة التي تؤمّن السفن الحربيّة للملك الاشوري، وتلعب الدور الذي لعبته جبيل بالنسبة إلى المصريين. وهذا يعطينا فكرة واضحة عن استمرار ازدهار صناعة السفن الفينيقية في نهاية الالف الثاني ق.م. ونجد في النصّ أيضا إشارة إلى إحدى المقومات الطبيعية التي تميزت بها المدن الفينيقية، وهي الثروة السمكية البحرية. أما الإشارة إلى أن تغلت فلاصر الاول اصطاد حيوانًا أسطوريًا في البحر، فتنقل على ما يبدو خبرا فعليا عن رحلة صيد قام بها الملك الاشوري في المتوسط، ولكن الكاتب الذي أراد تعظيم قوة الملك، تجاهل ما تمّ اصطياده بالفعل، وأشار إلى صيد غريب من نوعه.

نَعِمَ الفينيقيون في القرن الحادي عشر باستقلال سياسي دام حتى بداية القرن التاسع ق.م. عندما افتتح الأشوريون مرحلة طويلة من الحملات العسكرية التي قادتهم إلى السيطرة على السواحل الشرقية للمتوسط، وأخضع الملوك الأشوريون المُدُن الفينيقيّة لحكمهم بعد غزوات متكررة[5]. فقام أشور ناصر بال الثاني (883-859ق.م.) بحملات عسكرية عدة، قاد سنة 877 ق.م. حملة ضد

[1] يمكن مراجعة غزوات ملوك ماري على بلاد الكنعانيين في:
Dominique CHARPIN, N. ZIEGLER, «Mari (rois)» *DCM*, p. 497 – 500.

[2] حول أرشيف الألف الأول والملوك الذين استولوا على فينيقيا، راجع: أنطوان القسيس، "الأرشيف المنسي في تاريخ لبنان القديم"، دراسات، ص 143-146؛ ويمكن الاطلاع على أبرز النقوش البابلية والأشورية ولا سيما في الألف الأول ق.م. في:
Paolo XELLA, Les sources cunéiformes, *Krings*, p. 51 - 56.

[3] حول حدود بلاد أشور، في بلاد ما بين النهرين وخضوعها للدول القائمة هناك، وتسميتها، واتساع مساحتها، حتى تكوينها دولة مستقلة من القرن الرابع عشر ق. م.، وأبرز مدنها، ومراحل حملاتها في الألف الأول نحو الساحل الشرقي للمتوسط، راجع:
Pierre VILLARD, "Assyrie", *DCM*, p 88-90.

[4] يمكن مراجعة النصّ في:
A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 275; VAN DE WALLE, «Inscriptions et textes concernant l'histoire de la Bible», *DBS, IV*, 1949, p. 387 - 388.

[5] يمكن الاطلاع على مرحلة السيطرة الأشورية على المدن الفينيقية، في:
Guy BUNNENS, L'histoire événementielle Partim Orient, *Krings*, p. 227 - 232.

كركميش وفينيقيا حيث أخذ الجزية من مدن: **صور، وصيدا، وجبيل، ومحلاتا (طرابلس)، وأرواد،** وغيرها[1]. وورد في حولياته أن تلك المدن دفعت له الضرائب، وهي كانت من المواد الآتية:

"الذهب، الفضة، القصدير، النحاس، ثياب من كتان متعددة الألوان، قرود صغيرة وكبيرة، الآبنوس، العاج، مواد من البحر (دلفين) ـ هذه هي الضرائب التي حصلت عليها من رجال سجدوا أمام رجلي"[2].

يبدو من النص أن المُدُن الفينيقية لم تكن مزدهرة بالاخشاب فحسب، بل بمواد معدنية مختلفة ومنها الحديد، والثياب والعاج والفيلة. وهي مواد لم تكن كلها منتجة في بلادهم، بل كان بعضها مستوردًا من الخارج، من أفريقيا ومن الهند. وكان التجّار الفينيقيون ينقلونها إلى بلادهم من مناطق مختلفة، ما يبين أن التجارة الفينيقية حافظت على تألقها خلال الحملات الأشورية، بل كانت ضرورية لمواجهة الآشوريين ودفع الضرائب لهم.

وبدأت في عهد **شلمناصر الثالث** (858-842 ق.م.) ابن **أشور ناصر بال الثاني** حروب طويلة بين المُدُن الآراميّة والآشوريين، وتمكّن الملك الأشوري سنة 837ق.م. من الانتصار على ملك دمشق الآرامي **"بن أدد الأول"**، ثم هدّد باجتياح المُدُن الفينيقيّة في حال لم تدفع له الجزية، فأذعنت لتهديداته[3]، وحافظت على أمنها بعد أن دفعت مدن جبيل، صيدا، صور، وعرقا الضريبة[4]، وذكر في نقش آخر انه **"حصّل الضريبة من السفن من سكان صور وصيدا"**[5]، وفي ترجمة أخرى تضيف أنه حصّل الضرائب من **"بعلعازر من صور"**[6].

وفي عهد **أدد نيراري الثالث** (810-783 ق.م.) هاجم الآشوريّون مملكة دمشق الآرامية، ووجّه حملة ضد فلسطين، وفرض الجزية على مدن صور وصيدا وأدوم وفلسطين[7]. وضمّ بعض المناطق السورية إلى الأمبراطورية الآشورية، أما المدن الفينيقية فدفعت الضرائب من دون أية محاولة أشورية لضمّها، وهو ما تبيّنه حوليات أدد نيراري الثالث[8]. وذكر في إحدى حولياته المُكتشفة في بقايا قصره في نمرود (40 كلم جنوب شرق الموصل)، البلدان التي خضعت له من الفرات حتى **"البحر الكبير"**، ومنها: **"بلاد صور، بلاد صيدا، بلاد بيت عمري، بلاد أدومو، بلاد الفسلطو، وفرضت عليهم الضريبة"**[9].

---

[1] **حول حملات أشور ناصربال الثاني على الفرات واجتيازه نهر العاصي وتقدمه نحو المدن الفينيقية، يمكن مراجعة:**
Pierre VILLARD, "Aššurbanibal", *DCM*, p.105 – 106.

49 ـ راجع ما ورد في نصّ هذا الملك عن ضرائب المدن الفينيقية:
A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 275; VAN DE WALLE, "Inscriptions et textes concernant l'histoire de la Bible", *DBS, IV*, 1949, p. 388.

[3] **راجع أبرز حروب شلمناصر الثالث في فينيقيا:**
Paolo XELLA, Les sources cunéiformes, *Krings*, p. 53 – 54; N. JEDIJIAN, Tyr à travers les âges, p. 80 - 81.

[4] **ورد إسم صور وصيدا في حولياته التي تعود إلى السنة الثامنة عشر من بداية حكمه، وورد إسم صيدا وصور وجبيل في حملته العائدة إلى السنة الحادية والعشرين من بداية حكمه، راجع:**
A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET* p. 280; *TPOA*, p. 88.

[5] **A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET* p. 281.**

[6] ***TPOA*, p. 88.**

[7] **A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET* p. 281 TPOA, p. 94.**

[8] **أنطوان القسيس، "الأرشيف المنسي في تاريخ لبنان القديم"، دراسات، ص. 145.**

[9] ***TPOA*, p. 95**

توقفت الغزوات الآشورية على الساحل الشرقي للمتوسط في النصف الأول من القرن الثامن ق.م. واستؤنفت في عهد **"تغلت فلاصر الثالث"** (745 - 729 ق.م.)، وهو يُعدّ المؤسّس الفعلي للإمبراطوريّة الأشوريّة الحديثة، الذي بنى جيشًا جديدًا، ومارس سياسة جديدة قامت على ضمّ مناطق جديدة إلى إمبراطوريته منها: فينيقيا الشمالية، وجعل عاصمتها مدينة سميرا. فيما احتفظت مدن جبيل وصور وصيدا باستقلالها، ولكنها عانت من الضعف. وذكر في حولياته أسماء الملوك الذين قدّموا له الجزية، كان بينهم **"حيرام ملك صور وسيبيتي بعل ملك جبيل"**. وقد اشتملت على كميّات كبيرة من: **الذهب والفضّة والقصدير والحديد وجلود الفيلة والعاج والثياب والقماش الأرجواني وخشب الأبنوس وكل ما كان ثمينا للحصول على كنز ملكي**[1].

نستنتج من النصوص الآشورية أن المدن الفينيقيّة عرفت ازدهارًا اقتصاديًا، وكانت بعض المواد مُنتجة في أرض الفينيقيين، وبعضها الآخر كان مستوردًا من الخارج، ما يشير مرة جديدة، إلى ازدهار تجارة المُدُن الفينيقية التي أتاحت لها دفع الضرائب القيّمة للآشوريين.

أغرت جبال لبنان الأشوريين، كما فعلت مع المصريين وغيرهم. وقد فرض الآشوريون رقابة على قطع أخشاب الأرز ونقلها، وتشير النصوص الآشورية إلى قطع الملوك لأخشاب الأرز كدعاية تعكس قوتهم وهيبتهم، وكانت حملاتهم إلى قمم جبال لبنان الغربية والشرقية والأمانوس تُعدّ من الانجازات التي تُنسب إلى الملوك الآشوريين. فهم بصفتهم أقوياء وأتقياء، كانوا يبنون القصور والمعابد الضخمة مستخدمين أخشاب الأرز الصلبة[2]. ولكن الفينيقيين سعوا إلى الحفاظ على الأرباح المتأتية من تجارة الأخشاب لكونها كانت إحدى عناصر القوّة في اقتصادهم. ففي رسالة موجهة من أحد عمّال تغلت فلاصر الثالث نقرأ ما يأتي:

"بخصوص ملك صور، قال لي الملك: "بأن أكلّمه بلطف". فأن جميع الأحواض متوفرة بتصرفه، يدخل رعاياه ويخرجون من مستودعات البضائع، كما يشاؤون، ويتاجرون. سلسلة جبال لبنان متاحة لهم، بامكانهم الصعود إليها والنزول منها كما يحلو لهم، ويحضروا معهم الأخشاب. وأجعلهم يدفعون الضرائب على الأخشاب التي يحضرونها. لقد عيّنت مفتشي جمارك على طول سلسلة جبل لبنان وهم (مفتشو الضرائب) يراقبون الميناء.

عيّنت مفتش ضرائب على (أولئك) الذين يذهبون إلى الجمارك (الذين هم في) صيدا، لكن الصيدونيّين طردوهم. لذا أرسلت فرقة إتوا (*Itu'a*) إلى جبل لبنان. أرعبوا (الإتوا) الشعب، لاحقًا، أرسلوا (الصيدونيون) رسالة وذهبوا لاستعادة (مفتش الضرائب) وأعادوه (إلى صيدون؟). فقلت لهم: "أحضروا الأخشاب، جهّزوه، ولكن لا تعطونه للمصريين أو للفلسطيين، وإلا أمنعكم من الصعود إلى الجبل"[3].

تسلّط هذه الرسالة الضوء على الاهتمام الذي يحفظه تغلث فلاصر الثالث لملك صور، على الأرجح حيرام الثاني، وتعطينا صورة واضحة عن ثروات المُدُن الفينيقيّة، وكيفية استغلالها، ورغبة

[1] يمكن الاطلاع على تفاصيل أوسع حول النقش في:
A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 283.

[2] يمكن مراجعة سيطرة الآشوريين على قطع الأخشاب في جبل لبنان، في:
Maroun KHREICH, *Recherches sur l'histoire de Tyr entre le XIIe et le VIe siècle av. n. è.*, Thèse de doctorat, Sous la direction de Madame Hedwige ROUILLARD-BONRAISIN, ÉCOLE PRATIQUE DES HAUTES ÉTUDES, Paris, 2012, p. 167.

[3] تحمل هذه الرسالة الرقم ND 2715 ويمكن الاطلاع عليها في:
Maroun KHREICH, *Recherches sur l'histoire de Tyr entre le XIIe et le VIe siècle av. n. è.*, p. 168.

الدول الكبرى في الإشراف على ثروة جبال لبنان. كذلك يلفت نظرنا أن قطع الأخشاب وتحضيرها كانت صناعة مزدهرة، وكانت الأخشاب تُعدّ للتصدير، فكانت عملية اقتصادية متكاملة تتطلب تأمين عمّال لقطع الأخشاب، وشقّ طرقات لنقلها إلى الساحل، ومن ثم إلى المرفأ لتصديرها. ويمكن أن تستنتج من تحليل الحوليات الآشورية، أن صيدا وصور لعبتا خلال النصف الأول من الألف الأول ق.م. الدور الذي لعبته جبيل في نقل الأخشاب إلى مصر خلال الألفين الثالث والثاني ق.م.

وفي عهد سرجون الثاني (721-705ق.م.)، غزا الآشوريّون قبرص حوالى سنة 710ق.م[1]. إلا أن تجارة الأخشاب استمرت في ذلك العهد، إذ يشير نقش محفوظ في اللوفر للملك سرجون الثاني إلى نقل أخشاب من جبل لبنان عبر نهر الفرات لتزيين قصر الملك الآشوري في خرسباد[2]. ما يشير إلى أن الأخشاب كانت تُنقل برًا إلى بلاد ما بين النهرين، ثم تصل عبر نهر الفرات إلى وجهتها الأخيرة.

Palais de Sargon II, Bas-relief, Musée du Louvre, Paris

اغتيل الملك الأشوري سرجون الثاني سنة 705ق.م.[3]، فخلفه ابنه **سنحاريب** (705 – 681ق.م.) الذي وجّه حملة نحو شواطئ المتوسط سنة 701ق.م. ، وكان مصمّمًا على المسير إلى مصر

[1] A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 284.

[2] يمكن مراجعة:
Elisabeth Fontan, « La frise du transport du bois, décor du palais de Sargon II à Khorsabad », *AHL*, 14, 2001, p. 58-63.

[3] حول تسلمه الحكم وتأسيسه السلالة السرجونية، وأبرز المناطق التي توسع فيها، وتأسيسه عاصمة جديدة "دور شاروكين"، وعلاقته الذكية بالبابليين، ثم مقتله في إحدى غزواته العام 705 ق.م. راجع:
Pierre VILLARD, "Sargon II", *DCM*, p. 756 – 758.

لاحتلالها[1]. فسقطت المُدُن الفينيقّية في يده من دون مقاومة، أما **"لولي ملك صيدا"** على ما ورد في نقش سنحاريب، فتحصّن في صور البحرية، على الرّغم من سقوط صور البرية وصيدا. وأمام الضغط الآشوري هرب إلى قبرص لفترة من الزمن[2]. فعيّن الملك الآشوري ملكًا جديدًا على صيدا يُدعى **إيتوبعل** وفرض عليه جزية سنوية، وقد جاء في إحدى حولياته ما يأتي: **"لولي ملك صيدون أخذت ملكه وأقمت أتوبعل على عرشه وفرضت عليه جزية سنوية"[3].** لم يذكر سنحاريب صور في هذا الموضع، ولكنه ذكر في نقش آخر أن لولي هرب من صور من دون أية إشارة إلى سقوط الجزيرة[4]. ومن المرجّح أن صور البحرية التي لم تسقط بيد الآشوريين ظلّت موالية للولي، وبعد انسحاب سنحاريب استعاد لولي حكم صور، فيما ظلّ أيتوبعل ملكًا في صيدا. وهكذا انتهت وحدة المملكتين التي كانت قائمة منذ بداية الألف الأول ق.م[5].

وفي عهد **أسرحدون** (680-669ق.م.) وقعت ثورة في صيدا سنة 677 ق.م. ضد الآشوريين، قادها **عبدي ملكوتي[6]**، وهو على الأرجح خليفة أيتوبعل. فهاجم أسرحدّون صيدا ودمّرها تدميرًا كاملًا كما ورد في حولياته، واستحوذ على ثرواتها وسبى جمًا غفيرا من سكّانها إلى أشور. أما عبدي ملكوتي فسُبي إلى نينوى حيث قُطع رأسه، وتمّ تحويل صيدا إلى مقاطعة أشورية بعد أن بنى الأشوريون مدينة **"قار أسرحدون"** على أنقاضها[7]. ولكن المدينة الجديدة لم تشهد ازدهارا مميزا، وقد جاء في النقش ما يأتي:

"ضربتُ مدينة صيدون التي على ساحل البحر وأهلكت سكّانها على آخرهم ودمّرت أسوارها ومنازلها وألقيت موادها في البحر ونقضت الهياكل وفرّ ملكها عبد ملكوت في البحر كسمك ليختفي عن وجه عزتي فاجتذبته إليّ من بين الأمواج وقطعت رأسه واستحوذت على خزائنه من ذهب وفضة وأحجار كريمة وصندل وأبنوس ومنسوجات من الصوف والكتّان وكلّ ما حواه قصره وجلوت إلى أشور جمًّا غفيرا من الرجال والنساء وأخذت أيضا بقرًا وغنمًا ودواب الركوب والحمل. جمعت ملوك حاتي وملوك ساحل البحر، وبنيت مدينة جديدة في موقع آخر وسميتها قار-أشور-أحا-إيدّينا (قار أسرحدّون)" [8].

يشير النصّ إلى ثروات مدينة صيدا، ولا سيما إلى أسوارها، ومنازلها، وهياكلها، وخزائنها من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والمنسوجات والبقر والغنم والدواب، والأخشاب التي تبدو مستوردة من أفريقيا.

[1] **يمكن مراجعة أخبار سنحاريب وأبرز أعماله وفتوحاته في:**
Pierre VILLARD, "Sennacherib", *DCM*, p. 767 – 769.

[2] **A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 287-288; TPOA, p. 118 – 119.**

[3] **A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 288; TPOA, p. 119.**

[4] **Guy BUNNENNS, Histoire Evenementielle - Orient, *Krings*, p230.**

[5] **قامت في صيدا وصور مملكة موحدة لنحو قرنين من الزمن، ثم انهارت وحدتهما على وقع ضربات الملك سنحاريب. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة: مروان أبي فاضل، "صيدا وصور في العصر الحديد (مملكة موحدة أم مملكتان؟"، مجلة مرايا التراث، العدد السادس، ينشرها مركز التراث اللبناني في الجامعة اللبنانية الأميركية، ربيع/صيف 2017، بيروت، 2017، ص. 20 – 48.**

[6] **يمكن الاطلاع على نتائج هذه الثورة: Edward LIPINSKY, Assyrie, *DCPP*, p. 3.**

[7] **يمكن مراجعة: *TPOA*, p. 127.**

[8] **يمكن مراجعة: *TPOA*, p. 127.**

تراجعت أهمية صيدا في تلك الفترة[1]، وازدهرت مملكة صور تحت حكم ملكها بعل، الذي عاصر أسرحدون وأشوربانيبال في القرن السابع ق.م. وتميّز بدهائه وحنكته. فقد وقف إلى جانب الآشوريين في أثناء مهاجمتهم صيدا، وحصل منهم على حكم الصرفند ومدينة أخرى مجاورة لها كما جاء في حوليات أسرحدون (680-669 ق.م.)[2]، ووقّع معاهدة مع الأشوريين ودفع الضريبة لهم سنة 675 ق.م. ويشرف على إحترام المعاهدة مجموعة من الآلهة منها: عناة وعشترت، بعل شميم، بعل ملايي، بعل صافون وأخيرًا أشمون وملقرت. ويتبين لنا من نصّ المعاهدة المكتوبة باللغة الأكادية أن مدينة صور كانت غنية بثرواتها وأراضيها ومراكبها، وقد جاء في مقدمتها ما يأتي[3]:

10 - ليُحدث بعل شميم وبعل ملاجي وبعل صافون،
11 – عاصفة أمام مراكبك وتُقطع مراسيها،
12 – وأمواجًا عاتية فتُغرقها.
13 – ليُقَدّم ملقرت وإشمون أراضيك للنهب،
14 – وأتباعك للسبي خارج أرضهم ...
15 – وليُفسدا غذاء فمك
16 – وليجعلا عفنًا كساءك
17 – والزيت الذي يمسح جسدك.
18 – لتكسر عشترت، في قتالك العنيف، سهامك؛ ولتنزلك تحت أقدام
19 – أعدائك! وليقتسم وليوزع هذا العدو الغريب ثرواتك![4]

ثم انقلب بعل على الأشوريين، فاتّصل بتاهرقا ملك مصر (690 – 664ق.م.) وتحالف معه. إلا أن الجيش الآشوري هاجم مصر سنة 671 ونجح في احتلال "ممفيس"، وقد نقش أسرحدون ذكرى إحتلاله ممفيس على إحدى صخور نهر الكلب[5]، وفرض حصارًا على بعل الأول ملك صور، وورد في حولياته ما يلي:

غزوت صور، التي هي (جزيرة) في وسط البحر، استوليت على كل المدن وكل ممتلكات ملكها بعل، الذي وثق بتاهرقا، ملك النوبة. غزوت مصر باتورسي (Patursi) والنوبة[6].

ولما خلف أشوربانيبال (668-627ق.م.) والده قاد حملة جديدة ضد مصر سنة 667ق.م. فخضعت له المدن الفينيقية، وجاء في إحدى حولياته أنه فرض عليها عليها تقديم الهديا وتأمين السفن والرجال لمرافقته إلى مصر[7]. وحوالى سنة 664ق.م. عقد بعل ملك صور حلفًا مع بعض المدن الفينيقية وفي طليعتها أرواد، وثاروا على أشور بانيبال. ولكن الأخير غزا الساحل الفينيقي حتى أن يكينلو ملك أرواد فضّل الانتحار على الوقوع في أسر الأشوري، وبحسب الحوليات الآشورية كان له

[1] لمزيد من المعلومات حول الثورة في صيدا وصور في أواخر عهد الآشوريين، مكن مراجعة:
Guy BUNNENNS, Histoire Evènementielle - Orient, *Krings*, p. 230-232.
[2] يمكن مراجعة: *TPOA*, p. 126-131; Nina JIDIJIAN, Tyr à travers les âges, p. 90.
[3] A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 533 - 534.
[4] أنطوان القسيس، ملامح من الفكر الديني الكنعاني الفينيقي، فينيقيات 1، سلسلة الذاكرة والتاريخ – رقم 17، AUST ، بيروت، 2013، ص. 29 – 30.
[5] Nina JIDIJIAN, Tyr à travers les âges, p. 94.
[6] يمكن مراجعة:
A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 290; TPOA, 130-131.
[7] يمكن مراجعة:
A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts» ANET, p. 294

عشرة أبناء ذكور وقعوا في الأسر وحصل منهم آشور بانيبال على ضرائب قيّمة وعيّن أحدهم ويُدعى **"عزّبعل"** ملكًا على أرواد. وسقطت صور البرية، أما صور البحرية فتعرّضت للحصار، وفرض عليها الأشوريون شروطًا قاسية حدّت من حريتها، ولكن ملكها حافظ على عرشه، وقد جاء في حوليات الملك الآشوري ما يشير إلى غنى ثروات مدينة صور:

"ذللت بعلا وجعلته يعرض عن طموحه ويخضع لسلطتي وأسرت بناته وأخوات أخيه ليكنّ لي إماء وأتى يهاملك ابنه يبدي خضوعه لي ويقدم لي تقادم لي لم يسبق إلي مثلها ويدفع إلي رهينة بنته وبنات اخوته فعفوت عنه ونصّبته ملكا على البلاد[1]".

عانت صور البحرية من الحصار، واستفادت من موقعها الجغرافي وصمدت أمام غزوات الآشوريين،[2] ودفعت ضرائب قيّمة وهي عبارة عن مواد متنوعة وثمينة. ولكن ممتلكاتها على البرّ لم تسلم من حكم أشور بانيبال، فقد تعرضت صور البريّة للدمار وتمّ التنكليل بأهلها[3]. بعد وفاة أشور بانيبال، زاد الضعف في قلب الإمبراطورية الآشورية، التي سقطت سنة 612ق.م. على يد البلبليين وحلفائهم الميديين[4].

استولى البابليّون الجدد بقيادة "نابو بلاصر" على الأمبراطورية الأشورية ودمروا عاصمتها نينوى. لكن تغيير الحكم في بلاد ما بين النهرين لم يوقف الحملات على المدن الفينيقية، التي تعرضت لهجمات جديدة[5]. كان من أبرزها حملات "نبوخذ نصر الثاني"[6] (604 - 562 ق.م.) وهو أكبر ملوك ملوك الإمبراطورية البابلية الحديثة وأعظمهم شهرة. وقد تركت نقوش المستندات الإدارية من عهد "نبوخذ نصر" نصا قيّمًا اكتشف في قرية بريصا في البقاع الشمالي عن قطعه الأشجار من لبنان ونقلها إلى بابل، وقد جاء في النصّ:

في هذا الوقت، لبنان، جبل الأرز، الغابة المريحة لمردوخ، حيث يفوح عطر سلس وحيث لم يقطع الاشجار ملك من قبل ... تمناه نابو ومردوخ كزينة لقصر حاكم للأرض والسماوات، هذا اللبنان الذي كان محكوما من قبل عدو غريب كان يستغل ثرواته ـ كان شعبه مشتتا ولاجئا في مناطق بعيدة. (واثق من قدرة أسيادي نابو ومردوخ، سأجهز (جيشي) (لحملة) على لبنان. أعدت الفرح إلى هذا البلد مبعدا أعداءه عن كل أرضه. أعدت كل السكان المشتتين إلى ديارهم. ما لم يفعله ملك آخر (حققته بنفسي): مشيت في جبال شديدة المنحدرات، حطمت صخورا، شقيت طرقات وهكذا شقيت طريقا مباشرا (لنقل) أخشاب الأرز. طفت على أراحتو وأخذت لمردوخ، لملكي، أخشاب أرز جميلة صلبة وسميكة جميلة للغاية وذات نوعية ممتازة ولونها غامق، يكثر هذا المنتج في لبنان. في بابل أخزن

[1] A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 294-296; TPOA, p. 133.

[2] Nina JIDIJIAN, Tyr à travers les âges, p. 96.

[3] A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p. 2300.

[4] يمكن مراجعة أبرز تلك المخاطر وانسحاب الأشوريين من مصر (635) وقبرص، وصعود قوة البابليين، والحروب الأهلية بين الأشوريين إذ استولى ملك يدعى "أشور ـ إيتال ـ إيلاني" (etel - ilani–Assur) على السلطة سنة 630 ق.م.
Pierre VILLARD, "Aššurbanibal", *DCM*, p. 104 – 105.

[5] يمكن الاطلاع على واقع المدن الفينيقية أبّان السيطرة البابلية، في:
Guy BUNNENS, L'histoire événementielle Partim Orient, *Krings*, p. 232 – 234.

[6] حول أعمال نبوخذ نصر العسكرية، يمكن مراجعة:
Paolo XELLA, Les sources cunéiformes, *Krings*, p. 55 - 56; F. JOANNES, "Nabuchodonosor II", *DCM*, p. 555.

أخشاب من التوت. بفضلي يعيش سكان لبنان بأمان ولا أسمح لأحد بأن يضايقهم. ولكي لا يسيء إليهم أحد، حفرت نقشا يمثلني كملك أبدي لهذه (الناحية)[1].

لا شك أن في النصّ إشارة إلى إحدى أبرز المقومات الطبيعية التي تميز بها جبل لبنان وهي غناه بالارز، ولكن المميز فيه هو ذكر شعب كان يعيش في الجبل، تعرض للاحتلال من قبل عدو لم يذكره نبوخذ نصر، ويظهر النصّ سكان الجبل ينعمون بخصوصية معينة أعلن نبوخذ نصر عن نيته الحفاظ عليها، ما يجعلنا نضيف إحدى المقومات الجيوسياسية للجبل الملجأ. ولكن الجبل لم يكن معزولا عن الساحل، إذ يلفت نظرنا في النصّ إشارة جديدة توضح كيفية نقل الاخشاب إلى الساحل، وذلك من خلال حفر الطرقات عبر الصخور والمنحدرات، وهي كانت إحدى الوسائل القديمة التي كانت رائجة لنقل الاخشاب من جبل لبنان. ويذكّرنا مضمون هذا النصّ بما ورد في نصوص جلجامش، والنصوص المصرية والآشورية التي أشارت إلى قطع الأخشاب، ونقلها عبر طرقات محفورة من الجبال اللبنانية إلى الساحل.

ضعفت الأمبراطورية البابلية بعد "نبوخذ نصر الثاني"، واستولى الفرس على أملاكها بعدما أسقطوها، فأخضعوا المدن الفينيقية على زمن قورش الثاني في العام 539 ق.م.، فانضم الفينيقيون كغيرهم من شعوب المنطقة إلى النظام السياسي والإداري الذي طبقه الفرس في أمبراطوريتهم المترامية الأطراف[2].

الخاتمة:

تترك النصوص المصرية والمسمارية معلومات وافية عن أبرز الثروات الطبيعية التي تمتعت بها الممالك الكنعانيّة ـ الفينيقيّة، وامتلاكها الثروات البحرية، وغنى الجبال المطلة عليها بالأخشاب والصخور والمياه. كذلك تظهر المقومات البشرية من خلال براعة الفينيقيين في الاستفادة من الواقع الجغرافي لممالكهم، فاستغلوا ثرواتهم الطبيعية، وفي طليعتها الأخشاب التي أتقن الملوك استغلالها، فانشأوا مؤسسات اقتصادية وإدارية تشرف على عمليات القطع، وحفر الطرقات، ونقل الأخشاب، وتوضيبها، وتجهيزها في المرافئ بغية تصديرها، أو دفعها كضرائب للممالك الإمبراطورية. كذلك تظهر النصوص أن الفينيقيين سدّدوا ضرائب قيّمة، كانوا يستوردونها من خارج بلادهم، ما يقدم دليلًا إضافيا على ازدهار التجارة عندهم.

أثار الموقع الاستراتيجي للمُدُن الكنعانيّة ـ الفينيقيّة الإمبراطوريات الكبرى التي سعت لاحتلالها، والاستفادة من مهارة سكانها في المجالات البحريّة المختلفة، ولاستغلال الجبال المطلة عليها. ولا تهمل النصوص القديمة الاشارة إلى الجبل، الذي يبدو ملجأ للجماعات التي كانت تسكنه، كما كان البحر المجال الحيوي بالنسبة إلى سكان المُدُن الساحلية.

تسهم دراستنا في توضيح بعض المقومات الطبيعية والبشرية، وتفتح لنا باب البحث عن معطيات أثرية جديدة، ومصادر مكتوبة أخرى ومنها التوراة والنصوص الكلاسيكية والسريانية والعربية التي تزخر بمعلومات قيّمة عن الثروات الطبيعية للممالك الكنعانية – الفينيقية، ويساعدنا تحليل مضمونها على فهم كيفية اسغلال الكنعانيين – الفينيقيين مجالهم الجغرافي.

[1] يمكن مراجعة ترجمة النقش الذي اكتشف في وادي بريصا (Wadi Brissa) قرب منبع العاصي، في:
A. Leo OPPENHEIM, «Babylonian and Assyrian Historical Texts», *ANET*, p.307; Jidijian, *Byblos* à travers les âges, p 81 - 83.

[2] يمكن الاطلاع على تاريخ فينيقيا أبّان الحكم الفارسي بين 539 – 333 ق.م. في:
Guy RUNNENS, L'histoire événementielle Partim Orient, *Kringas*, p. 234 - 236.

المختصرات

AHA = Annales d'histoire et d'archéologie.

ANET= J.PRITCHARD, Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Third edition, Princeton, New Jersey, 1969.

DA = Dictionnaire de l'Antiquité, publié sous la direction de J. LECLANT, Paris, 2005.

DBS= Dictionnaire de la Bible, Supplément, Paris, 1928 – 1992.

DCE= POSENER, R, Dictionnaire de la Civilisation Egyptienne, Paris, 1998.

DCM = JOANES, F., Dictionnaire de la Civilisation Mésopotamienne, Paris, 2001.

DCPP= E. LIPINSKI, Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique, Brepols, 1992.

Krings= KRINGS V. (éd.), La civilisation phénicienne et punique: manuel de recherche, Leiden – New-YORK – Köln, 1995

TPOA= J. BRIEND _ M-J. SEUX, Textes du Proche - Orient ancien, Editions du Cerf, Paris, 1977.